

خطوط من تضاريس الذاكرة

مجد الخدادي (باحث وكاتب صحفي)

شذرات مستعادة من أرض الجذور، يتداخل فيها عامل الذات مع مكونات الموضوع، في سرد تخيلي استرجاعي، يروم توثيق وقائع وأحداث صنعت الذاكرة الجمعية لأجيال من القرن العشرين في مقدمة الريف.

تركيب بمقاربة تتوسل جمال الفن، وتروم سطوة التاريخ، وتطل على عبق الأنثروبولوجيا.

+++++

النص الأول: الدهشة الأولى

صبيحة يوم اثنين. القرار جاهز، ولا مجال لمزيد من التردد.

غسل أطرافه جيدا، وفرك قدميه إلى أن زالت طبقة التراب المترسب عليهما. فوق القشاب،

لبس جلباب الثوب، المغسول حديثا بعناية الأم. تذكر زوج النكايل المتقادمة، مسح عنها

الغبار، وقدّر أنها صالحة للانتعال... أفضل من الانتساب إلى فئة الحُفَاة، في جميع الأحوال.

بعد الظهر... رصد مرور إِبْنِي العم، وأدركهما في منتصف الطريق.

-ماشي لجامع أمّوح؟ وما جيئششاي التّخريرة؟ دُور دَعَطْكَ يَمَاك بيضة، جِيبا واجي،

تَرْجَاوْكَ.

-والو الجّاج.

حسم الأمر الشقيق الأصغر:

-غِي زيدَ تَمَشِيوْ، الفقيه مايقولشاي

على النهار اللّول.

في الطريق، لقّناه تفاصيل بروتوكول

الاستقبال: نزع النعلين وتركهما في

صحن المسجد، تقبيل يد الفقيه،

والوقوف أمامه متأدبا...



مسجد باب جنان كان بناية متواضعة من حجارة وطنين

ليس هذا هو السي عَبْتَلَام (عبد السلام)، الذي رآه مرات من بعيد يسير مسرع الخطو،

وسمع صوته يرتفع بالأذان. حاشية القب المثنية بعناية على الجبين فوق الوجه الحليق،

تضفي هالة من الهيبة على المتربع فوق الهَيْدُورَة البيضاء، يزيدها رهبة القضيب الرابض

بجانبه....

والعيون المصوبة إليه من رؤوس غريبة، لم يسبق له أي اتصال مع أصحابها، وبينها، في

مقدمة الصفوف، ثلاثة أزواج لعيون مؤنثة... ولم يعرف إناثا من قبل، غير الأخوات ومن في

عِدادهن بالرضاعة والقراة...

رفع السؤال الارتباكَ درجاتٍ على سلم الانفعال:

-كي سمّك الله؟ ودي من أنت؟

-مُوح دَفْلان القُلاني.

-جيت دَفْرا؟

صوت يُحسن إصداره من بين الأضراس وحافة اللسان، جلب له أول توبيخ من الفقيه...

-كا أدْلاغي على جّاج؟! قول نُعام ألسي.

-نعام ألسي.

-شكُون جابك؟

-بُوخدي، مع الدراري دَعزيري.

-ليه ما جابك باباك؟

-سوّق.

أصاب ابن العم، لم يثر الفقيه موضوع التّخريرة...

لكن غياب الأب عن الحدث أضاع عليه إكرامية المناسبة، والانتشاء بالسلطة المطلقة على كل وافد جديد، وهو يتلقى إعلان التفويض: ها هو ابني السّي، إيلا ما بُغا يقرأ، انتِ قُتْلو وانا نُدْفنو.

صباح اليوم الموالي. استقبال لطيف من طرف الفقيه، مشفوعا بالدعاء بالفتح والتوفيق،

بعدها دس في جيبه ورقة الخمسين فرنكا الزرقاء (10 دريال)، هدية له من الأب، احتفاء

بمبادرة الابن الطوعية بالانخراط في مشروع حفظ القرآن.

لَوْح صقيل من خشب الجوز الجيد، ولو أن شقا يخترقه من الأعلى إلى الأسفل، بفعل التّبّاع في يد الشقيق الأكبر، رممه الأب بسلك نحاس ورقاقة نيكل.

بمساعدة ابن العم، المزهو باستعراض تفوقه، بدأ اختبار ترويض الأصابع لقلم القصب،

وتسويد منحرجات خطوط التّخّناش بالصمغ على صفحة الصلصال البيضاء...

هي الدهشة الأولى في بداية مغامرة الاستئناس بأسرار الحرف.

النص الثاني: رسالة إلى ظلي

من غير تحية ولا تقديم، أخبرك أنني أنجزت تقييما موضوعيا لعلاقتك بي، أظهر أن كفتي الميزان بيننا متعادلتين في المزايا والزلات.

ولا حجة لك في الاحتجاج على هذا التصرف المنفرد من جانبي، مادام الانفصال ثابتا، وكل طرف انصرف في سبيله. ويحق لك أن تنجز تقييمك الخاص.

لهذه الاعتبارات أعتبر نفسي متحررا من أي تحفظ أو مجاملة في مخاطبتك، ومع ذلك، وباسم التواطؤ السابق بيننا، أسجل لك بعض التفوق.

قدرتك على التحمل، إذ تزحف في ظهيرة يوم قائف ملتصقا بالزفت الملتهب على الطريق من سوق السبت، من غير شكوى أو تأفف.



قمتَ بدور المرأة في صباحات الذهاب إلى المدرسة، بتنبهيه إلى خصلة شعر نافرة ومتمردة في أعلى الرأس، مثل كَرَن قزم، كفيل بأن يشكل موضوعا لزملاء في الدراسة بارعين في اصطياذ فرص السخرية من كل شيء.

شاركتني في المعارك، ولو أنك اكتفيت بتقليدي ببلاهة تُحسد عليها في تسديد الضربات أو تلقّيها، وعند الهروب من ورطة، تعدو خلفي مستنجدا، هذا إذ لم تسبق إلى الفرار الجبان.

كرهتك أحيانا إلى درجة المقت. لعنتك سرا وجهرا يوم ارتكبتَ جريمة نسف مشروع عشاء بلحم الحجل وسيقان كَرْنِيَّة.

بعد ساعتين أو أزيد من التربص معاً كي تأوي إلى الكُرَّان لحضن البيض، ثم الانتظار الطويل لتطمئن وتغفو، سبقْتَنِي سحنتك الملعونة، فرأتك وطارت قبل أن تصلها يدي الممدودة بحذر قط.

وهل تذكر...؟

رجل يغتسل في "عين لعزارا" (وهو متزوج) وسط أشجار التين والزيتون والصفصاف، دفعته المفاجأة إلى الخروج لمطاردتنا، قبل أن ينتبه إلى عريه الكامل، ويعود لاجئا إلى الماء. المعلم وزوجته في لحظة حميمية، لما حملنا إليه سطل الحليب عشية يوم أحد ربيعي... ماذا تقول؟ عاقلٌ عليها؟ اسكت ألممسوخ، كيف لك ذلك، وقد توقفتَ عند الباب الخارجي كعادتك، وما بحثُ بالسر أبدا لك ولا لغيرك.

كيف حال شجرة الزيتون العتيقة؟ في حضرتها يتحرر كلانا من رفقة الآخر، ويخلو إلى دواخله.

أبلغ التحية إلى كلبي الأسود عَسَّو...

وأنا أكلفك بهذه المهمة بنية سيئة مبيته، من أجل إغاظتك والشماتة فيك، بتذكيرك بأنه يدوسك بقوائمه الأربع وهو يعدو خلفي وبجانبي.

أما زال يُخِلُّ بالواجب أحيانا، يغيب من غير إشعار، يختفي عني وعنك أياما، وعندما يظهر مُنْهَكا، يقضي أياما أخرى في لعق جراحه من المعارك مع منافسيه على الإناث؟ إياك أن تقول إنه مات!

ولا حاجة لتذكيرك بحماقات أخرى جميلة، فهي من صنف الأسرار المحفوظة بيننا...
أراك راغبا في تسجيل نقطة!

ليكن، هي لك، على الأقل للحفاظ على ماء وجهك الغائر: افتقدتك أيها الشقي.
أما إذا كنت تود السؤال عن الحال بعد طول المآل، فاعلم أن الناس في غابة الإسمنت ليس لهم ظلال، مثل الجن والأشباح في أساطير بلدتنا.

النص الثالث: النكايل وموت الشيفور

ابن العم سبق موح بعامين في الالتحاق بالمسجد لحفظ القرآن، وبمثلهما سبقه في الخروج إلى الحياة، لا بد إذن أن يكون عارفا بكل شيء، أو بأمور كثيرة على الأقل، فالناس من حوله يجزمون بأن "اللي فاتك بليلة فاتك بحيلة."
ابن العم سبق إذن بليال كثيرة، لكن افتتاح أول مدرسة ساهم في تعميم ودمقرطة التعليم محليا (سيعرف موح بعد سنوات كثيرة أن ذلك شعار النقابة الوطنية للتلاميذ ثم الاتحاد الوطني لطلبة المغرب). وبفضل أريحية شيخ القبيلة، أصبح كل الأطفال بين 6 و10 سنوات في سن السابعة، والتحقوا بالدراسة، بتواريخ ازدياد... جلها مزور رسميا.
في منتصف العام بقسم التحضيري، بفعل قدر من الاعتداد بالذات والاعتقاد بقطع شوط في المعرفة على طريق الوظيفة، استيقظ وسط الأقران هم الاهتمام بالمستقبل.
المعلم هو الأقرب إلى منال الخيال، بحكم الجلوس اليومي أمام السي القاسيمي، بما له من تقدير واعتبار في الدوار، المعلم الأنيق، ابن البلد القادم من القرويين لفتح باب الترقى أمام جيل ما بعد الاستقلال.
أما جدازمي، بهالته المرعبة للكبار، والمستهوية لخيالهم في نفس الوقت، بأن يصلها أبناؤهم في يوم بعيد لرد الاعتبار، فلم تخطر ببال موح، ربما بسبب نفور مبكر من كل ما يرتبط بالسلطة.

لا كلام يعلو فوق كلمة ابن العم، المهووس بمهنة الشيفور، ويعتقد جازما أنها الأرقى والأهم بين جميع المهن. استطاع أن ينقل القناعة بانها أم المهن إلى عدد لا يستهان به من المؤيدين، يتردد في أذهانهم السؤال المقلق عن مدة الدراسة المطلوبة للحلول بذلك المقام.

الوصل إلى سوق السبت ليس حدثا عاديا في ذلك الزمن، ويستحق عناء السير على الأقدام حوالي 16 كلم للوصول إلى التجمع الكبير لقبائل مكناسة واولاد بكار، ومغراوة، واكزناية، والبرانس. كثرة ووفرة من كل شيء في عين الصغار، وسيارات تعبر بسرعة على "طريق الكودرون"، الرابط بين تازة والحسيمة.

هذا هو الشيفور إذن، يعاينه عن قرب. قامه كبيرة بجسم ممتلئ، ووجه بقسمات متناسقة، يتوسطه شاربان ضاربان إلى السواد، تختفي فوقهما العينان خلف نظارة سوداء، تحت قبعة

رأس أنيقة وأقية من الشمس، لا مجال لمقارنتها بشاشية الدوم المعروفة لدى الفلاحين في موسم الحصاد.

كذلك الكار الطويل الملون، بمرايا جانبية وستائر على زجاج النوافذ، يتصوره يسخر من زميله الكار لَحْمَر فولفو، صاحب المقدمة الناتئة (الزنفارة)، يئن صدره وينفث دخانا أسود عند تسلق المنعرجات الصاعدة إلى قريته على طريق مرصوفة بالحجارة، من أثر العمل بالسخرة (la corvée) في عهد الحماية الفرنسية، والسائق الأسمر البشرة زيزي، لا يكاد يُرى خلف المقود، لولا اهتزاز جسده النحيل مع كل دورة للعجلات بفعل "السوكوس".
حظ عظيم أن كان في الوقت المناسب والمكان المناسب أمام مثال "الشيפור النموذجي" في حافلة تازة-الحسيمة، وقد توقفت في السوق، لاقتناص ركاب فوق الحساب.
في صورة مضادة لاحقا، تقف شاحنة لنقل الرمال، يقصد صاحبها "عين لعزارا" قرب المدرسة ليرتوي ويغتسل... ويا ليت ما فعل، أو على الأقل لو حضر بعد الالتحاق بالقسم في بداية حصة المساء الدراسية، كي لا يراه أحد.



وليت المَزْعُوبُ احميدة لم ينتبه إلى المفارقة، ولم يطلق الجملة القاتلة:
والايا، الشيפור عندو النكايل!!*
مستحيل... لا يمكن أن ينهار كل شيء هكذا! يجب خلق منفذ لمواساة الذات.
ألا يكون الشيפור مراتب ودرجات، يوجد في أسفلها ناقل الرمل هذا، لأنه لم يدرس كثيرا، ولذلك ينتعل نعلا حقيرا لا يمكن أن يليق بالشيפור ا؟
لا جدوى. لقد وقع الضرر. اهتزت الصورة في الوجدان، وخفّت تاشيْفُورْتُ في كفة الميزان.

*النكايل، نعل بسيط يدوي الصنع، فرشاة القدم من عجلات شاحنة، فوقها فرشاة من جلد، تثبت عليها بالمسامير وأربطة من جلد البقر المدبوغ. (صالحة في جميع التضاريس (CTT, chaussures tout terrain) .
وهذه في الصورة متطورة، وتعود لفرقة "الكوم المغاربة" التي أحدثتها فرنسا ضمن "جيش المستعمرات" سنة 1914. (Les ghomiers marocains)

النص الرابع: ظلال حاكوزا

توقفت حياة الديك الأحمر في منتصف النهار. لن يُسمع بعد اليوم صياح صاحب العرف الغليظ والريش الزاهي. ولو أنه خَلَّف ذرية كثيرة، فقد خلف أيضا أسى في نفس من تبتّاه وهو

فَلُّوس، بفضل جرأته وميله المبكر إلى الزعامة وسط صغار الدجاج.



لو عاد من المدرسة قبل وقوع الواقعة، لأمكن، ربما، تحويل الشفرة إلى وجهة أخرى.

الأم منهمكة مع الأخت الكبرى في التحضير، ولا وقت لديها لمواساة أو تبرير. قُضِيَ الأمر إذن، ومن الأفضل التفكير في حصة المساء عند معلم الفرنسية الصعب المزاج.

خفت وطأة الحزن وقت العشاء، عندما وُضع التَّريْد في الصحن (الغطر)، وأُفْرِغ فوقه الديك والمرق الخاثر بالتوابل والبصل.

فُضاء أول الخطو في الحياة

ثم لكل واحد(ة) بيضة مسلوقة ونَكْوَلَة (خبزة صغيرة) مزينة بالزبيب واللوز. (ربما لم يتوفر الجوز هذه السنة، لأن بُوعِثُو، الذي يجلبه من جبل تينااست ويبادلُه بالصوف، لم يمر بالمنطقة هذه السنة)، وحفنة هريسة بخليط من الحبوب والقطاني، تيمنا بسنة خصبة مقبلة. وجبة غنية بالسعرات الحرارية في ليل الشتاء الطويل البرودة. بين بطّانية الصوف والهيدورة، يزيد الدفء من الأجساد الملتصقة ببعضها في أُلْفَة الظلمة، وصرير الريح في الخارج، ينكسر على أسوار البيت، ويُرْجُّ شجرات اللوز والتين العارية في سباتها الشتوي. ثم تحكي الأم.

في قديم الزمان، كانت أسرة لديها سبعة أطفال، 6 أبناء و بنت. أكل الأبناء نكولتهم والبيضة وهريسة الحبوب في الحين وناموا متخمين، أما البنت، فكانت قنوعة، اكتفت بأكل النكولة والبيضة، واحتفظت بالحبوب لليوم الموالي.

في الليل، هبت عاصفة قوية وتساقطت أمطار طوفانية، جرفت ما كان لأهل القرية من حبوب في المخزن الجماعي...

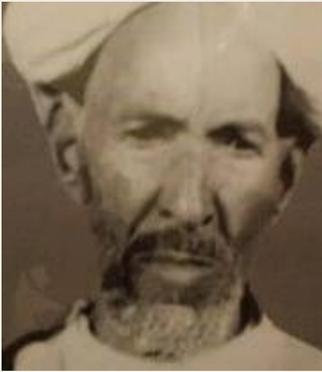
دُعر الناس، وأيقنوا أنهم هالكون جوعا.

أخذت الطفلة حصتها من الحبوب وفرزتها. ذهبت إلى المخزن الجماعي ووضعت كل صنف

في مكان. قضت الليل دون نوم، تتمنى أن تتضاعف كل حبة آلاف المرات...
في الصباح، أطلت على المخزن، فوجدته ممتلئا بالقمح والشعير والبقول والعدس والحمص.
ابتهج الناس بالطفلة المُخْلِصَة، وأطلقوا عليها لقب حاكوزا، وصارت حكيمة يستشرونها في
أمور حياتهم، وجعلوا يحتفلون كل سنة بذكرى الأمل والخلاص.
كبرت الطفلة وصارت فتاة مكتملة، تجمع بين الذكاء والجمال. تقرب إليها شباب عديدون،
لكنها رفضت أن تتزوج، كي تظل صديقة وقريبة من الجميع على نفس المسافة.
قيل إنها عاشت أزيد من مائة عام، وفي عهدها عرفت القرية ازدهارا كبيرا، واغتنى أهلها
وعاشوا في سعادة. ولما توفيت بنوا لرُفاتها ضريحا بقبة وجعلوا يدفنون موتاهم حوله...
(قبل ذلك، يفترض أنهم أقاموا مخزنا حصينا للحبوب، كي لا تجرفه العواصف...
وخرافتي مشات مع الواد، وأنا بقيت مع لجواد!).

النص الخامس: موج... يوم من حياة شاب في بداية القرن 20

استطال ظل البغل والثور نحو الشرق، وتمدد منكسرا فوق أخاديد الحرث، فأدرك موج أن
الشمس بدأت تميل نحو المغرب خلف جبل أزدم، في نهاية واحد من نهارات أبريل الطويلة.
حرر الدابتين، فانصرفتا لقضم العشب النابت بعد الحرث الأول لإعداد حقل الدرة، ثم استلقى
على جنبه يمضغ بشهية ما تبقى من حفنة تين جاف دسته والداته صباحا في قُبْ جلبابه
زاداً للنهار، واستغرق في مناجاة الذات.



موج

تقول والدته إن عدد سنوات عمره مضبوط لديها جيدا، فهو بكرها،
وقد ولد في شهر رمضان، فجعلت عقدة في خيط صوف، وفي
رمضان الأخير أضافت إليه العقدة الثامنة عشرة.
أما والده فيضيف كل سنتين مولودا جديدا من والدته، وهي ابنة
عمه، وآخر من ضرتهما الأولى، الطايفية. ولو أنجبت لغزالية، الزوجة
الثالثة الوافدة منذ ثلاث سنوات، لكانت الزيادة ارتفعت إلى الثلاث.

محصول جيد في الأفق من الحبوب والقطاني والدرة، بما يكفي وزيادة لإطعام الإخوة
والأخوات من الزوجتين، وقطيع الغنم تعزز بالمواليد الجدد في الخريف والربيع. كما أن مدخول
الحرفة وقر فائضا بفضل الموسم الفلاحي الواعد.

كل الشروط متوفرة إذن ليتزوج في الصيف المقبل، بما في ذلك العروس، ابنة علال
بوحرّاشة، صديق والده من بني يفتح، التي لمحها مرتين أو ثلاث، عند استضافته لهما يوم
سوق الجمعة.

سيستمر في العمل تحت سلطة الأب بضع سنوات، ريثما يتسلم المهمة شقيقه من الأم
وقربينه من الزوجة الثانية، ثم يستقل بأسرته... وقد يضيف لاحقا زوجة ثانية، فلن يكون أقل
شأنا من والده في أمور النساء...

خوار الثور في اتجاه راع رائح بقطيع بقر قطع عليه حبل التفكير.

وضع الأغراض على ظهر البغل وربط إليه الثور، بعدما اطمأن إلى وجود البندقية ذات الطلقتين معبأة في الخرج.

محنذ أَرْكَاغ، صاحب القامة الطويلة والبنية القوية هو وحيد والدته الأرملة، بعد مرور وباء الطاعون. عبأ بندقية ساسبو وتربص مترقبا قرب ممر باب جنان...

ها هو موح على ظهر البغل يقترب من منتصف عقبة عين عُلَق، بضع خطوات أخرى ويصبح في تناول القذيفة... لكنه ارتكب الخطأ القاتل عندما سبق لسائنه بالوعيد والتهديد أصبعه في الضغط على الزناد، معتدًا بقوة الجسدية وموقعه في الأعلى، ومعتقدا، ربما، بأن الخصم غير مسلح.

بسرعة استرجع موح شريط شجاره أمس مع والدة أَرْكَاغ، بعد أن اقتحمت بقرتها البحيرة قرب عين الهدّار، وأتلفت أغراس الخضر، فتوعدت بأن تحرض ابنها للانتقام. امتدت يده إلى البندقية في الخُرْج، وقفز إلى الأرض مستلقيا خلف كومة دوم. أطلق الرصاصة الأولى وانتظر...

حياته متوقفة على الرصاصة الوحيدة المتبقية، ولا مجال للمغامرة بإطلاقها هباء... لا أثر لرد فعل، فخمّن أن الأولى أصابت الهدف.

أدرك الدابتين اللتين أفزعهما دوي الرصاص، ثم التف حول الجرف الصخري صاعدا إلى الدار. الأب في الساحة يسوي جذع شجرة بلوط، لاحظ ارتباك الابن، فعلق بين المزاح والجد:
-كنت عارفك ألبلا ماشي دَهْرَس المحراث، وهانا أَنْجَرُ نَعَالَة جديدة.
-لا باس كاجات غي ف المَحْرَات... أَرْكَاغ طَيِّحْتو...

سقطت القادوم من يد الأب بفعل الصدمة، قبل أن يسأل:
-مات أو غي مَرَصَصْ؟

-ما نَعْرَف، سَمَعْتو قال أيا ما قُتَلْنِي...

-إيوا إيلا مات، هاد اللية بني سَناسَن يقطعونّا اجدر أو نَقَطَعُوهُ لَم. ألبلا، شحال وَصِيَّتْكَ ما دَعَمَل زُكَأ مع حَدْ، احنا بني يفتح بوجدنا هنا، شكون ماشي يَوْقَفْ مُعانا من اولاد اجراو؟
-اعطيني غي القُرْطاس وسدّ عليك الباب مع أولادك ونسالك... داك 4 دَبْنِي عَمّو يُقْتُلُونِي أو نُزِيد نُطِيح فِيهِمْ...

-اييه، باش مَنّاين يُطِيحوك، يَدْخَلو عَلَيَّ للحالة يُزِيدُونِي عْلَكَ؟!

بعد فترة تفكير، أضاف الأب:

هُودَ عِنْدَ امْحَنَد جَدَة، وَقَلُّو قَالِكْ بن خالك، أَيَاو ما أَنْعَرَفَكُشاي أَدْتَخَبِع مَ البارود، وإيلا خَلَّاتْ صُفِيَة دَالْحاج خُدادة شي راجل، هاد الليلة خَصّو يَبان.
بعدها تيقن أن الابن استوعب المهمة، أضاف:

زِيدَ عِنْدَ لَفْقِير قَدور، هو من بولرباع، وأُيْبِع القراطاس دَمْلِيلِيَة، قَلُّو يعطك عَبْرَة دالقراطس، وغدّا إيلا صابني عايش نُخَلِّصو فيه، وإيلا قتلوني بني سَناسَن، هذاك عَزَاه فِيّ.

إيوا اسبِك، وانا نَخْرَج لأشبار مُورُ الدار، نَحْطِي لا يَتَعَرَّطو لَكَ.

يسكن الغريمان فوق مرتفعين متقابلين على مسافة قصيرة حول مضيق باب جنان، لذلك تسلل موح خارج الدار، وحوّل الوجهة شرقاً، كي لا يقع في مجال الرؤية من دار أزكّاغ.

تحصّن الثلاثة في أشبار، متوقعين ألا تشرق عليهم شمس النهار الموالي... انتصف الليل دون صدور رد فعل، وعند اقتراب الفجر سمعوا نواح الأم بعبارات تمزج بين الأمازيغية

والبرنوسية، التقطوا منها "أيا مُحَنِدِيئُو، انا دَحَرَشْتَك حتى قَتَلَك الكلب بَلَكَلْب..."

مر الليل بدون بارود. حضر حكماء بولرباع من الدواوير المجاورة فوضعوا علما أبيض على بيت القاتل وآخر على بيت القتيل، واصطحبوا الأب وكبير بني سناسن إلى المسجد.

بعد التحري والاستماع للشهود، ثبت أن القتل كان دفاعاً عن النفس، وحصل باختراق الرصاصة لعظمتي الفخذين، فتوفي الضحية بفعل النزيف.

في نهاية مداوات شاقة، نطق كبير الحكماء بحكم الدية: بقرة يسلمها الأب حالاً لوالدة القتيل، و40 مدا من الحبوب في الصيف، ورأس غنم لكل واحد من أبناء عم القتيل، والقاتل

"يخرج طُليب" لمدة سنة، بالنفي من المنطقة. ثم ختم الجلسة:

-اعْمَل عليها فائحة أَلْفقيه، وئوضو نَدْفنو الميت.

أضاف الأب: حَسبو عَلِي حتى الذبيحة دَالْمِيَّت، عَزَا مَنِّي لِيَمَّاه وُبني عَمّو.

في نفس اليوم، استقر موح على الطريق إلى اولاد سيّدة، في أقصى غرب ربع الطايفة، قاصدا عائلة الزوجة الثانية لوالده، على بعد حوالي 10 كلم.

سقط مشروع الزواج... لكن فاطنة دُبُوَحَرَّاشَة ظلت في الانتظار.

انقضى عام الإبعاد وعاد موح، لكن الأب راودته غواية الترحال المتوارثة من شاب آخر، هو الجد الأعلى الحاج خدادا، الذي وفد قبل قرن ونصف من تاركيست، ربما هرباً من ثار.

باع الأرض وأشجار الزيتون، وفي ليلة مقمرة، حمل الزوجات والأطفال وخلايا النحل على الدواب، وعاد إلى الموطن في جبال بني يفتح، وقد بدأ الناس يتحدثون عن دخول "النصارى

من الفرانسييس والسبنيول" إلى البلاد.

توفي الأب في أرض الجذور، ثم رجع موح إلى حيث جرت الواقعة بدزينة من الإخوة والأخوات الأيتام، وهناك أضاف الزوجة الثانية، وسينجب لاحقاً دزينته من الأبناء والبنات.

ثم كان نزوح جماعي نحو الجبال مع حركة عبد المالك ابن الأمير عبد القادر الجزائري ضد التوغل الفرنسي في مقدمة الريف سنة 1914، ونزوح ثان عند انضمام المنطقة إلى ثورة

مجد بن عبد الكريم الخطابي سنة 1925.

مرات كثيرة كان الموت ينتظر موح في منعطفات الصدق، بطلقة ثار أو برصاص وقنابل الجيش الفرنسي، لكنه ظل يخطئ الطريق إليه... إلى أن "تعب وخرج من طريقه"، كما كان يقول

عن نفسه.

غروب يوم أحد من صيف 1967. الجسد الطويل مسجى في البيت، وقب الجلباب الأبيض مسدل على الوجه، تجراً موح الصغير على رفعه وتقبيل جبين، تهيأ له أنه يحتفظ ببقية

دفع، وأن العم الشقيق "عززي موح" يتحين اللحظة المناسبة لينهض، ويطلق مزحة ساخرة من المتحلقين حوله.

النص السادس: عرس اللبن والطيارة الشكامة

وسط هذيان حمى خفيفة مترتبة عن الزكام، استيقظ موح على وقع حركة غير عادية في مربط الدواب المحاذي للحجرة الصغيرة حيث ينام مستقلا عن الأبوين والشقيقتين الأصغر، ومن تحت دفة الباب لمح شعاع ضوء خافت...



لا شك أنها البقرة في حالة مخاض، فهو يتذكر جيدا يوم تخصيصها في الصيف الماضي بثور بوجمعة، صديقه في الرعي واللهو خلال عطل الصيف الطويلة آنذاك بأشهرها الثلاثة، وساعده الأيمن في المعارك عند الاقتضاء. لقد واكب الشهر في انتظار اليوم الموعود، بعدما عرف من الأم أن حمل البقرة يدوم 9 أشهر (مثل المرأة، كما قالت).

غفوة أخرى محمومة، قطعها صوت الأب يسأل الأم من فراشه إلى المربط. - كاولدت عجل أو عجلة؟

استرجاع للزمن في نفس المكان

- أغني تهنئا، ما عندك ما ذبيع هاد المرة... عجلة، نخليوها نكسبوها مع يماها، راها بدات أدشرف.

انتكاسة للأب وللأبن، لكن لأسباب مختلفة ومتعارضة. فما كان لرقة الأم أن تسمح لها بإطلاق هذا السهم، لو عرفت أنها تعمق خيبة الأمل لدى موح، الذي ظل خلال 9 أشهر يمني النفس بعجل. سيعتني به جيدا، يجلب له الأعشاب الطرية من النجم واللواية ليتعلم الأكل، وسيقاوم كي لا يبيعه الأب بعد الفطام، فيكبر ويباري به ثور بوجمعة. لا شيء يغري في ليلة أدغاس، فهو لا يستسيغ هذا الحليب الأول المركز بالدهون، رغم محاولات كثيرة في مناسبات سابقة... ومع ذلك لن يفرط في نصيبه، فمن السهل مقايضته بحبات تمر أو برتقالة متبقية لدى شقيقته من يوم السوق الأخير.

وها هي سبعة أيام من الطعام بالحليب المغلي، إذ لا مجال لاستهلاك السائل الأبيض إلا بهذه الطريقة، قبل أن "يسبغ العجل" ويصبح جائزا لإخراج الحليب من البيت لتقديمه إلى الجيران.

كل العدة جاهزة، وهو الذي جلب لحاء جذور شجر البلوط لدباغة الشكوة من جلد خروف

العِيد. أما أواني الفخار، من قُديرة وكَصعة وحلّاب ومَحْكَن... فذلك من صنع الأم على حد ذاكرته. وكذلك دقيق الشعير والسُّواحت (المغارف) من خشب الجوز الجيد، اقتنتها في آخر جولة لبوعَبُو، الذي يجلبها مع السواك وثمار الجوز من جبل تايناست، ويقايسها بالصوف والحبوب.

أخيرا، يحل "عرسُ اللبِن" مع المخضة الأولى.

ليلة شبيهة بحفل، يدعى إليه حول "كَصعة الطعام باللبن" الرجال من الأقارب والجيران، وضيف الشرف فيه عادة هو العم الأكبر موح، عاشق كؤوس الشاي ساخنا، وراوي قصص وأحداث من زمن آخر بعيد، يُجهد موح الصغير ذهنه في استحضاره، فيراه هلاميا وغرائبيا، عن "عام الهربة دعبد المالك"، ثم "الحركة دعبد كُريم" واللجوء إلى الجبال، وانخراط أبناء جيله في قتال الجيش الفرنسي...

يسرق النوم موح الصغير، فيتراءى له ثور أسود طائر مع السحاب من غير جناحين، ويأتي "عبد كُريم" في هيئة وملامح العم موح...

تتوالى الرؤى الهلامية، إلى حين سماع أزيز "الطيارة الشكامة"*** عند بعد، الممهدة لمهمة القتل من طرف الطائرات المقنبلة في سلاح الجو الفرنسي. يسرع مع الأطفال والنساء إلى المخابئ في أدغال شجر البلوط... ثم يستيقظ فزعاً، ويكون عرسُ اللبِن صار بعيداً.

*حركة عبد المالك ابن الأمير عبد القادر الجزائري ضد التوغل الفرنسي في مقدمة الريف سنة 1914.

**ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي سنة 1925.

***الطيارة الشكامة: هكذا سمى الناس في مقدمة الريف طائرة الاستطلاع في سلاح الجو الفرنسي.